الخلفيّة التاريخيَّة

من زمن بعيد، اختار الله "إبراهيم"، ووعده بأن يجعله أمة عظيمة، وتتبارك فيه، وفي نسله، جميع قبائل الأرض.

تحقق الوعد، وصار إبراهيم قبيلة، وأصبحت القبيلة أمَّة، وانحدرت الأمة إلى مصر، ومكثت فيها أربعمائة عام.

قبل أن نخوض في بحث موضوعنا، نذكّر القاريء أن هذه الأمة خرجت من مصر بعد معجزات كثيرة من الضربات، وصنعت الفصح، وبمعجزة عبرت البحر الأحمر بقيادة "موسى"، وانطلقت إلى "برية سيناء". وهناك تلقَّى "موسى" شريعة الرب، كما سلّمه كل دقائق العبادة، وما أمر به عن خيمة الاجتماع، والذبائح والكهنوت.

وبعد انتهاء رحلة مريرة في التّيه والترحال في البرِّية، دامت أربعين عاما، دخلت الأمة أرض الموعد، تحت قيادة "يشوع". وقبل أن يموت، كانوا قد استولوا على أغلب أرض الموعد، التي قُسمت بين الأسباط الاثني عشر.
وتبع ذلك فترة القُضاة، وهم رجال أقامهم الله ليخلّصوا الأمة من الغزاة.

وانتهى عصر القُضاة، وبدأ عصر الملوك، وتم مسح "شاول" كأول ملك ثم أتى بعده "داود" "فسليمان"، ثم "رحبعام".

بعد فترة قصيرة من حكم "رحبعام بن سليمان"، انقسمت الأمة إلى قسمين: مملكة "إسرائيل" أو "افرايم" في الشمال وعاصمتها "السامرة"، وتتكون من عشرة أسباط، ومملكة "يهوذا" في الجنوب، وعاصمتها "أورشليم" وتتكون من سبطين.

وكانت حرب بين المملكتين، ثم أتت فترة من الهدوء، عاد بعدها العداء من جديد.

كان هناك عدد من الأُسَر التي حكمت في المملكة الشمالية، لكن لم يقم منهم ملك تقي. وفي نهاية المطاف أراد الله أن يعاقِب تلك الأمة على ارتدادها، الذي سبق وحذَّرها منه على فم أنبيائه؛ فأغارت عليهم القوات "الأشورية" من الشمال، وسقطت " السامرة " في عام 722 ق.م. وسيقت أسباط "إسرائيل" العشرة إلى السبي، وامَّحت من على وجه الأرض.

وأما "يهوذا" في الجنوب، التي كان كل ملوكها من نسل "داود"، فقد أُعطيت مائة عام، وإن كانت تسير في نفس المصير، وتزداد في الارتداد. ولما كان بعض من ملوكها أتقياء؛ ساد فيها العديد من فترات اليقظة الروحية.

وفي عام 609 ق.م. اعتلى " يهوياقيم " العرش، وزحفت عبادة الأصنام على اليهودية من جديد. ولم يقض "يهوياقيم" على الوثنية والفجور، لكنه زاد منهما.

وجاء تحذير الأنبياء: إن لم تكن توبة، ستكون الدينونة. وبالرغم من هذه الكلمات النارية التي كانت تخرج من أفواههم، إلا أن شعب اليهودية لم يلتفت إليها.

وفي عام 605 ق.م. انقلبت موازين القوى، وظهر "نبوخذ نصر". وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاما، اقتاد أغلب شعب "يهوذا" إلى "بابل" على أربع مراحل. وهناك على ضفاف نهر "بابل" جلسوا وناحوا، إذ تذكروا صهيون. وعلى الصفصاف علقوا أعوادهم، وتساءلوا: "كيف يمكنهم أن يرنِّموا ترنيمة الرب في أرض غريبة؟" (مزمور 137 : 1و4).

لقد أعطت الأمة أذنا صماء لتحذيرات الرب، وكانت النتيجة أن سقطت اليهودية في يد أعدائها.

وبرغم الارتداد فقد بقي أناس قليلون أمناء للرب، تماما مثلما سبق وتنبأ الأنبياء. أحبّوا الرب، وعاشوا حياتهم يعملون مسرَّته على مدى السبعين عاما من السبي في "بابل". صحيح أن الأمة كانت قد استبعدت الوثنية من أنظمتها، لكن الحب المُخْلص ليهوه لم يكن إلا في قلب القليلين. وبعد السبي، أصبحت البقية القليلة أقل وأقل، بل جاء وقت لم تكن تلك البقية (في حدود معرفتنا) سِوَى زكريا وأليصابات ومريم ويوسف وسمعان الشيخ وحنَّة النبيَّة وبعض الرعاة. لم يكن أحد في اليهودية، مهيأ للترحيب بنسل إبراهيم الموعود به في العالم، غير هؤلاء. لم يدرك أحد آخر، النور الذي قد جاء لينير الأمم، مجد شعب الله، "إسرائيل". في أيام السبي كانت البقية ممثَّلة في "دانيآل" و"حننيا" و"ميشائيل" و"عزريا" (دانيآل1: 6) . أربع شموع، بالإضافة إلى قِلَّة قليلة أضاءت في غياهب الظلام الدامس، في تلك العصور المُلحِدة. قليلون كانوا مخْلِصين. وفي الوقت الذي لم يكن أحد مهتَّما بتقوَى الله، اهتمت تلك البقية الصغيرة بإلهها وبكلامه.

إن الرب لا يهتم بالعدد، ولا يترك نفسه بلا شاهد. إن الدِّين الحق يستمر في العالم بلا انقطاع، وإن كان اتباعه نادرا ما يُعَدّون بأكثر من بضعة أفراد.

في بابل كان الرب مقتنعا بأن يغربل شعبه الحقيقي قليل العدد. والمدهش حقا أن تلك القِلَّة، الناشطة روحيا، بقيت مُخلِصة للرب في بيئة معادية، كما هو مبيّن في الأصحاحات الستة الأولى من "سفر دانيآل".

الدرس الرئيسي

إن العبارة السابقة تؤدي بنا إلى الدرس الرئيسي لهذا السفر، ألا وهو: " كيف نبقى مُخلِصين في بيئة معادية، لا نفقد حبَّنا وولاءنا للرب، وإن حلّت بنا المصائب وانتابتنا المخاطر."

من خلال هذا السفر نتعلم كيف نرنِّم ترنيمة الرب في أرض غريبة. هكذا فعل "دانيآل" ورفقاؤه الثلاث.

الأمر الذي لا يختلف عليه عاقلان، هو أن أي شخص يمكن أن يعيش مع الرب، مادام يرى كل شيء حوله في سكينة بيضاء. إلا أننا نعرف أن "نوح" و"إبراهيم" و"موسى" و"داود"، رغم أنهم كانوا رجالا أتقياء، إلا أن كلمة الله سجَّلت أن كلا منهم سقط في خطية. ليس هذا من الغرابة في شيء، فكل منهم فيه -على الأقل- عيب واحد في شخصيته، وبعض منهم فيه أكثر من عيب واحد.

الكتاب المقدس لا يتستَّر على أشخاصه البارزين، أو يدَّعي بأنهم كانوا مختلفين عما كانوا عليه. لكن نفس الكتاب – الكتاب المقدس – لم يسجِّل عيبا واحدا في حياة "دانيآل".

إن روحانية الشخص واستقامته، لا يتطلبان ظروفا مثالية ينشأ فيها؛ فإنهما ليستا نباتا ينتعش في صوبة يدفأ ويُعَدّ فيها، بل الإنسان بالحري يقوَى متى تعرّض إلى الثلوج والرياح والبرد، وإلى الجفاف والشمس المحرقة.

أُخذ "دانيآل" من بيته وعائلته وأصدقائه، وهو في الرابعة عشر من عمره. سيق قهرا إلى أرض غريبة، وهناك تم إخضاعه لتلقين صارم، سنقرأ عنه بعد قليل. وفي السنوات التالية أُحيط بأعداء حسودين، خططوا له ما هو ضد حياته.

بسرعة تحرر "دانيآل" من الإغراء. لم يتبع ازدهارا ماديا، أو تقدما شخصيا على حساب أي شيء آخر. لقد أُحيط بالشر في شبابه، وفي منتصف عمره، وفي شيخوخته. ما من تجربة إلا وانتصر عليها. لم يسجِّل الكتاب المقدس عيبا واحدا في شخصه. لقد صمم في قلبه أن يُرضي الله، ولم تهتز عزيمته.
هل من الممكن أن تعيش لله في عالم معادٍ؟!
الإنسان التقي يمكنه ذلك، ويمكنه أيضا أن يزدهر، وإن كانت الظروف سيئة.

ربما قِلَّة منَّا واجهت الصعوبات التي واجهها "دانيآل". وعندما نفكر في الصعوبات الخاصة بنا، كثيرا ما نُقنع أنفسنا بأن الآخرين ليس لديهم صعوبات مثلنا، وأننا سوف نُحرز تقدما روحيا أكثر لو كنا في ظروف أخرى مثل غيرنا. فمثلا العامل الذي في مصنع، يعتقد أنه سهل عليه أن يعيش الحياة المسيحية، لو كان عمله مكتبيًّا. وموظفة المكتب مقتنعة بأن الأسهل لها أن تمكث في البيت، لتكون ربَّة بيت مسيحية. وربَّة البيت ليست مُدركة صعوبة الحياة المسيحية في المدرسة. وطالبة المدرسة ترى أن التحدِّي سهل في حياة المصنع.

وهكذا تدور الدائرة، والكل يتخيّل أنه ليس عند أحد صعوبات ضخمة مثل ما لديه. ونلتمس العذر لمستوانا الضعيف روحيا في الحياة المسيحية، بسبب الظروف التي وُجِدنا فيها.
"سفر دانيآل" يبرهن لنا أن الروحانية الحقيقية، لا تعتمد أبدا على أن تكون الأمور سهلة.

ترى ماذا كان سر نجاح "دانيآل" ؟!
السر بسيط، فقبل أن يفسِّر "دانيآل" حلم "نبوخذ نصر"؛ صلَّى (2 : 17 – 19). وعندما دبّروا مؤامرة ضده، ليُطرح في جب الأسود، كان يصلِّي (6 : 10). وانظر ماذا يتكلم الأصحاح التاسع؟ إنه عن "دانيآل" في الصلاة. لقد كان "دانيآل" رجل صلاة.

إن حياة الصلاة، هي نصف سر بقاء الإنسان مخلِصا لله، وسط عالم معاد، والنصف الآخر نجده في (9 : 2).

نقرأ عن "دانيآل" أنه كان يفتش الكتب ويفهمها. أي كتب كانت هذه؟ كانت "الكتب النبوية للعهد القديم"، التي كانت مكتوبة في ذلك التاريخ، ففي (9 : 11 و 13) يستشهد بناموس "موسى".

سر نجاح "دانيآل" سهل المعرفة، وان كان صعب التطبيق. إنه استطاع أن يَثْبُت في الله وسط عالم معادٍ، بقراءته كتابه المقدس، ولهجه فيه بصلواته.

إن حاجتنا اليوم أن نركز على هذه التدريبات العادية. فكثيراً ما يُظن أن سر الحياة المسيحية، يكمن في حصولنا على بعض الخبرات والاختبارات غير العادية مع الله.

وتختلف التعبيرات عن هذه الاختبارات من شخص لآخر. وعادة ما تكون الفكرة واحدة. فيقال إن اختبارا جديدا مع الله، يرفعني لمستوى أعلى عما أنا عليه الآن، لذا يجب أن أكرّس طاقتي طلبا للدخول إلى تلك الحياة الأفضل، ولن أستريح حتى أفوز بذلك الاختبار الجديد.

كان لـ "دانيآل" اختبارات رائعة مع الرب، لكنه لم يطلبها!! لقد طلب الرب، من أجل الرب نفسه، وليس من أجل ما قد يفعله الرب له. كما استمتع بمعيَّة الرب، وبالتناجي معه في الصلاة، راغبا إدراك مشيئته من خلال كلمته.
هذا هو السر: إنه قرأ كتابه المقدس ولهج بصلواته.

ولو تفحصنا بنور الحق، لوجدنا أن هذا السر، هو سر الشهداء المسيحيين الأوائل المُضطهَدين، والغيورين المبشرين المدققين، كما كان سر الرواد العظماء مبشري القرن الماضي. لقد كانوا مدركين جيدا، أن الذين يعرفون إلههم "سيقوون ويعملون" (11 : 32)؛ لذا عاشوا مثل "دانيآل" في عالَمَين، وأدركوا مثلما أدرك: أن ذلك الوطن السماوي متداخل في أمور هذا العالم، فأصبحوا أصدقاء لله، ومحبوبين في السماء (10 : 19). هذا هو السر.

وبعد أن عرفنا السر، فلنبدأ الآن دراسة "سفر دانيآل"، لنتعلم كيف نواجه التيار بمفردنا.